في الدعوة والحركة

حول دور المسجد في الإسلام

الأخ م. ف.

هذا المقال هو ملخّص محاضرة ألقيت في مسجد أبو بكر في مدينة فرانكفورت . وقد لخّص الأخ المحاضـــر في مطلع حديثه ما سبق أن استمع إليه الإخوة في مناسبات سابقة عن دور المسجد في الإسلام عامّة .. ثمّ تنـــاول في الحديث التالي دور المسجد في البلاد غير الإسلاميّة وبعض واجباتنا على هذا الصعيد

قال تعالى :

﴿ يَا بَنِي آَدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأعراف : ٣١]

﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ [الأعراف : ٢٩]

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآَخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة : ١١٤]

﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِـــنْ قَبْـــلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۞ لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾ [التوبة : ١٠٧-١٠٨]

﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ۞ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآَخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآَتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّـــهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ [التوبة : ١٧-١٨]

﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآَصَالِ ۞ رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ ۞ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [النور : ٣٦-٣٨]

وهنالك إلى جانب كلّ هذه الآيات الكثير الكثير من الأحاديث حول المسجد وفضله وفضل المشي إليه وواجبات المسلم تجاهه ، وصلاة الجماعة بشكل خاص .. ومن هذه الآيات والأحاديث نصل إلى ما يلي :

المسجد هو المؤسّسة التربوية الثانية في الإسلام بعد الأسرة ، ولعله يكون في أيامنا هذه المؤسسة الأولى قبل الأسرة لما عليه حال أكثر الأسر من بعد عن الإسلام .. فالطفل ينشأ مسلماً في بيت أهله يرضع لبان الإسلام ، ويتربّى على حبّ الله ورسوله ، إلى أن يبلغ سنّاً يصبح فيها التلقي من خارج المنزل أكثر ضرورة له ، وعندها لا يكون أمامه سوى المسجد .. خاصّة وأنّ مدارسنا ومجتمعاتنا أصبحت بعيدة كلّ البعد عن الإسلام بل هي تحاربه وتحاول بشتّى الوسائل انتزاعه من أفكار الناس وعقولهم واستبداله بأفكار أخرى تخدم أهدافها وأغراضها

إذن يتجه الطفل إلى المسجد ، ويتجه إليه أيضاً الشاب حديث العهد بالإسلام ، والرجل الذي عاد إلى الإسلام ، والمرأة التي هجرت مجتمع الجاهلية وقرّرت أن تلتزم بالإسلام من جديد .. يعود كلّ هؤلاء ليبحثوا عن أناس يقدّمون لهم ما يبتغون من أمور دينهم ، ويرشدونهم ويوجّهونهم ليكونوا لبنات في بناء الإسلام العظيم .. فمن سيقدّم لهؤلاء ما يحتاجون ؟

يجيبنا الله تعالى بقوله : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآَخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآَتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ [التوبة : ١٨]

هؤلاء إذن هم عمّار المساجد وهؤلاء هم الذين يجب أن يتلقّوا أولئك القادمين ويتعهدونهم بالعناية والتربية ليجعلوا منهم مسلمين مجاهدين عاملين ، يطبّقون إسلامهم في حياتهم ثمّ في أسرهم ثمّ يعملون على تغيير مجتمعاتهم .. ونحن في هذه العجالة لن نتعرّض لمناقشة الأسلوب التربوي أو المنهاج الذي سيربّى عليه هؤلاء ، وإنّما نريد فقط أن نوضّح كيف يمكن أن نوجد في المسجد هذه النخبة من القائمين والعامرين ، ثمّ كيف يتحوّل المسجد إلى مدرسة تخرّج لبنات جاهزة للبناء الإسلاميّ العتيد

ولمعرفة واجبنا نراجع بسرعة موقفنا الحاليّ من المسجد والموقف المثاليّ الإسلاميّ الذي كان على عهد رسول الله ﷺ وخلفائه الراشدين ، وطريقة الانتقال من وضعنا إلى الوضع المثالي

نحن في أيامنا الحالية –سواء هنا في أوروبا أو في البلاد الإسلاميّة المختلفة– نكتفي من علاقاتنا بالمسجد بصلاة الجمعة ودرس أو لقاء أسبوعي ، وخيرنا من يصلّي بعض الأوقات مع الجماعة ، ثمّ ننصرف كلّ إلى مشاغله وأعماله

.. وبعملية حسابية بسيطة نجد أنّنا نقدّم للإسلام عن طريق المسجد خمس ساعات أو ستّ ساعات في الأسبوع .. وبتعبير آخر : فضلات أوقاتنا . ونحن –بعلمنا هذا– نظنّ أنّنا نقدّم الكثير الكثير ، ونمنّ على الله بما نقدّم . والسؤال المطروح هنا هو : هل يكفي هذا ؟ ..

إذا نظرنا فوجدنا أنّنا مقصّرون بحقّ أنفسنا ثقافة وأخلاقاً وعملاً وتطبيقاً ، ومقصرون بحقّ أبنائنا تعليماً وتربية وفهماً للإسلام ، وبحقّ أسرنا تثقيفاً وتوعية وإرشاداً ، وبحقّ مجتمعنا الصغير من حولنا وبحقّ مجتمعاتنا في بلادنا .. حيث يحكم بغير الإسلام ويحارب الإسلام ، ويقتل ويلاحق من يظهر مجرّد ولائه للإسلام .. عندما ننظر فنجد كلّ هذا ، فلا بدّ أن نجيب بأنّ ما نقدّمه للإسلام لا يكفي ، ولا بدّ من تقديم المزيد من الجهد والوقت والمال ، وإلاّ فإنّ لنا يوماً نقف فيه بين يدي الله ﷻ ليحاسبنا على كلّ دقيقة من عمرنا أين أضعناها ، وعن كلّ قرش من مالنا من أين جئنا به وأين أنفقناه

لا أريد أن يبقى الموضوع مجرّد نقد لا يوجد حلاً .. فكثيراً ما نقوم في نهاية كلّ جلسة إسلامية ونحن نشعر بالتقصير ، ونتساءل ماذا نفعل ، ويظلّ صدى السؤال يتردّد في أعماقنا بضع ساعات أو بضعة أيام .. ثمّ يخفت ويموت

سأحاول عرض أسلوب عملي .. ولكن قبل هذا أكرّر التساؤل : هل شعرنا بضرورة الجدّ في حياتنا وضرورة تقديم المزيد من التضحيات لإسلامنا ، أم أنّنا ما زلنا نعتقد أنه من خلال سهرات السمر ، والاكتفاء بصلاة الجمعة ولقائنا الأسبوعي سنحقق النصر للإسلام وسننجو من عذاب الله يوم القيامة ونكون من الذين جاهدوا في الله حقّ جهاده ؟ ..

إنّنا أيها الإخوة والأخوات ، ما لم نبدأ ببناء أنفسنا بناء سليماً صحيحاً ، ثمّ بناء أسرنا فلن نستطيع الصمود أمام تحدّيات العصر .. لن نستطيع الصمود أمام بريق المال وجاه المناصب ، ولا أمام الدرجات العلمية العالية التي جئنا نطلبها هنا .. لن نستطيع الصمود أمام تحدّيات الأعداء خارج بلادنا ، وتحدّيات الحكام داخل بلادنا .. وسننهار ، وبسرعة ، ليستبدل الله بنا قوماً آخرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ، يقيمون حكم الله في هذه الأرض ، فقد آذن حكم الله أن يعمّ الأرض ، وبدأت صحوة الإسلام تسري في العالم ، وبدأت نهاية عصر الجبرية الذي أشار إليه رسول الله ﷺ في الحديث الصحيح ، وجاءت بداية عصر الخلافة الراشدة .. فطوبى لمن يعمل ويقدّم للإسلام ، طوبى له نعيم الدنيا والآخرة

كيف سيكون العمل ؟ .. لقد هيّأ الله ﷻ لنا الجوّ من نواح مختلفة ، ليقيم الحجّة لنا أو علينا ، فأمامنا أولاً شباب مخلص متعطّش للإسلام ، يجتمع من مختلف البلدان تحت راية لا إله إلاّ الله ، وأمامنا ثانياً بيوت وأمكنة نستطيع الاجتماع فيها –وأخصّ بالذكر هنا ميزة لنا ونحن خارج بلادنا فكثير في بلادنا الإسلامية يفتقدون نعمة الاجتماع

الحرّ- ولنلاحظ أيضاً كلمة (بيوت) في الآية الكريمة ﴿ **فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ** ... ﴾ [النور : ٣٦] فالله ﷻ لم يقل هنا : (في مساجد) ، كأنّما ليلفت نظرنا إلى أنّ الشكل الخارجي ليس هو المهمّ في الموضوع .. المهم هو استعمال هذا المكان ، فإن كان في سبيل الله ولذكر الله وتسبيحه والسجود له وتعليم دينه ، كان بيتاً من بيوت الله ولو كان غرفة صغيرة في مكان بعيد ، أو داراً نائية .. كدار الأرقم بن أبي الأرقم ، أو كان مسجداً له شكل المسجد واسمه ، كمسجد رسول الله ﷺ الذي كان نقطة انطلاق الإسلام في ربوع الجزيرة العربية ومنها إلى الدنيا بأسرها

نحن متفقون إذن أننا نملك –أينما كنّا- مسجداً (أو بيتاً) في كلّ مدينة أو قرية ، اجتمع فيها مخلصون يريدون العمل في سبيل الله ، فماذا يفعل هؤلاء ؟ ..

نعود لنلقي نظرة سريعة على مسجد رسول الله ﷺ ، ونسمع ابن مسعود يقول : « **مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَلْقَى اللَّهَ غَدًا مُسْلِمًا فَلْيُحَافِظْ عَلَى هَؤُلاَءِ الصَّلَوَاتِ حَيْثُ يُنَادَى بِهِنَّ ، فَإِنَّ اللَّهَ شَرَعَ لِنَبِيِّكُمْ ﷺ سُنَنَ الْهُدَى وَإِنَّهُنَّ مِنْ سُنَنِ الْهُدَى ، وَلَوْ أَنَّكُمْ صَلَّيْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ كَمَا يُصَلِّي هَذَا الْمُتَخَلِّفُ فِي بَيْتِهِ لَتَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ ، وَلَوْ تَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ لَضَلَلْتُمْ** ، ... **وَلَقَدْ رَأَيْتُنَا وَمَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا إِلاَّ مُنَافِقٌ مَعْلُومُ النِّفَاقِ ، وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ يُؤْتَى بِهِ يُهَادَى بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ** (أي يتمايل) **حَتَّى يُقَامَ فِي الصَّفِّ** » (رواه مسلم) .. فماذا نفهم من هذا القول ؟

المسلمون الأوائل يلتقون خمس مرات في اليوم ، أي أنهم في حالة استنفار كامل دائم ، يسمعون صفارة الإنذار فيهرعون إلى المسجد تاركين أعمالهم ومزارعهم لا يتغيّب واحد منهم سمع النداء ، كأنّهم يتمثّلون قول رسول الله ﷺ في السبعة الذين يظلّهم الله تحت ظلّه يوم لا ظلّ إلاّ ظلّه ، ويسعى الواحد منهم جهده ليكون واحداً من الرجال الذين قلوبهم معلّقة في المساجد إذا خرجوا منها حتى يعودوا إليها

واقعنا قد لا يسمح لنا بهذا .. وكلّكم تحدّثه نفسه الآن : هل نستطيع أن نجتمع خمس مرات كلّ يوم من أجل الصلاة ؟ .. أين العمل وأين الدراسة ؟ وأين المهمّات الأخرى التي يتطلّبها المنزل والزوجة والأطفال ؟ .. وهل تركنا بلادنا وجئنا إلى هنا لمثل هذا ؟ .. نحن نعمل وندرس وعندما ننتهي سنعود إلى بلادنا لنعمل للإسلام إن شاء الله ..

أقول لكم : نحن لم نطلب شيئاً بعد ، وإنما ما زلنا في طور الاستعراض ..

المسلمون الأوائل بذلوا كلّ وقتهم للإسلام ، وما تبقّى من وقت ، كانوا يبذلونه لحياتهم الدنيوية فوصلوا إلى النصر في أقلّ من عشرين عاما ..

إذا كان غير ممكن –في ظروفنا الخاص– أن نقوم في الجماعة خمس مرات في اليوم ، فلنقل إذن إنّه يجب على كلّ منا أن يبذل غاية جهده ، بكلّ ما في الكلمة من معنى ، أي على الأقلّ أن يبذل جهده كما يبذله لكيلا يفوته طعـــام الغداء أو العشاء .. يبذل قصارى جهده في أن يصلّي كلّ ما يستطيع من أوقات في جماعة ، ثمّ أن يخصّص ســـاعة أو ساعتين يومياً ليأتي إلى المسجد ويحضر درساً واحداً يتنوّع مع الأيام ، فيوم في التربية الإسلامية ويوم في الفقه وثالث في التفسير ورابع في الحديث وخامس في اللغة العربية وهكذا .. وإنّ قضية اللغة العربية بالذات لقضية مبكية ، فهـــي لغة القرآن ، وإذا تمّ الفصل بينها وبين المسلمين فقد هؤلاء الأنابيب التي تمدّ بيوتهم بالماء النقيّ الصافي رغم وجود النبع وبقائه

وإذا كنّا نستكثر هذا القليل في سبيل ديننا ، فلنعد إلى الآية الكريمة : ﴿ ... **وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ** ... ﴾ [التوبة : ١٨] فهل نخشى أحداً إلاّ الله ؟ .. لماذا نخشى أن تضيع منّا ساعات في ســـبيل الله ؟ .. لمـــاذا نخشى أن نخسر في أعمالنا وتجارتنا ودراستنا إذا بذلنا الأوقات لدين الله ؟ .. لماذا نخشى الفقر إن كنا نؤمن بالله الذي تكفّل لنا بالرزق ؟ .. لماذا نخشى الإنفاق .. ليس إنفاق المال فحسب بل إنفاق الجهد والوقت أيضا ؟ .. أليس هـــذا كله خشية لغير الله ؟ .. أليس الله بأحقّ أن نخشاه إن كنا مؤمنين ؟ ..

لقد أقام الله علينا الحجّة بإخوة لنا ، يدرسون في الجامعات والمدارس ويجتمعون كلّ يوم بعد صلاة الفجر لحضور درس حتى تطلع الشمس .. ثمّ يتوجّه كلّ منهم إلى مدرسته أو جامعته

وأقام الله علنيا الحجّة بإخوة لنا يعملون طوال النهار ويجتمعون على درس لهم كلّ يوم قبل الفجر بساعة لأنهم لا يملكون من الوقت لذلك إلاّ في مثل هذا الوقت المبكر ..

أما إذا نبذنا الإسلام فإنّ الإسلام ينبذنا ، وإن الرسول ﷺ يقول شرف المؤمن قيام الليل ، وكثير منّا من جعـــل الليل للسمر واللهو ، وإنّه ليكره لنا مجرّد الكلام بعد العشاء إلاّ بذكر الله وما ينفع الإسلام ، وكـــثير منّـــا يمـــضي السهرات فيما قد لا يرضي الله ، وإنه كان يقول مخاطباً فاطمة : « **قومي فاشهدي رزق ربّك** » ، وكثير منّا قلـــب ليله نهاراً ونهاره ليلاً ليسهر أمام شاشة الرائي ، ولربّما تفوته صلاة الفجر ، ورسول الله ﷺ يقول : « **مـــن صـــلّى الفجر في جماعة ، وجلس يذكر الله حتى تطلع الشمس كان له أجر حجة وعمرة تامتين تامتين** » .. ويقول : « **من صلى الفجر في جماعة كان كمن قام الليل كلّه** » .. فهل نزهد في هذا ؟ .. كأنّما أصبحت حسناتنا كافية ولسنا في حاجة إلى مزيد .. فلا حول ولا قوة إلاّ بالله العليّ العظيم